الحج ... إلى شلالات نياجارا

الحج إلى المواطن الفريدة مختلف ألوانه .

فمنه حج دينى إلى البقاع المقدسة ، يلتمس المرء فيها شفاء النفس ، وصفاء الروح .

ومنه حج رياضى إلى ميادين الارتياض ، يطلب المرء فيها حق بدنه عليه ، ويبتغى النزهة والسلوى .

ومنه حج ثقافىّ إلى دور العلم ومجامع الرأى ومعاهد الفكر ، يتزود فيها المرء زاد المعرفة ، ويقتبس نور الحكمة .

ومن الحج أنواع تعزّ على الاحصاء ، فيها للنفوس غذاء ، وللأذهان متاع .

فأما الحج إلى شلالات نياجارا فهو — فيما أرى — حج شامل ، يحتوى دواعى الحج ومزاياه جميعاً . . . فيه من الدين قبسة ، ومن الرياضة نفحة ، ومن العلم طَرَف . . . وإنى لأسميه حجًّا إلى موطن الجمال الأصيل ، ومظهره الأسمى ؛ إذ أن الجمال هو غاية المثل العليا فى صحة الأبدان والأذهان والأرواح !

يقف الصوفىّ المتعبّد أمام شلالات نياجارا فيستشعر إزاءها روح الله ، ويؤنس من جانبها قبسا من نوره الأزلىّ ، ولا يلبث أن تتجلى له عظمة الخالق وضآلة المخلوق .

ويسرّح الباحث نظره فى تلك البقعة الشمالية من الدنيا الحديدة ، فيرى ذلك العباب تتلاطم أثباجه ، وتتخبط أمواجه ، وكان هديره الصّخاب يقص على الكون أحداث تلك البقعة التى شهدت هنودها الحمر مقيمين على أرباضها ، يسبّحون بحمد هذه الشلالات . ويقدسون اسمها ، وينصبونها إلهًا جباراً له الطّوْع والاذعان ، فلا يفوتهم فى كل عام أن يزدلفوا إليه بقربان نفيس :

عذراء من ربات الفتنة والسحر ، يلقون بها إليه ، ليسبغ عليهم بركة الرضا والغفران .

وإن روّاد الطبيعة ليشهدون من هذه الشلالات منظراً عجبا ، فيتساءلون : كيف انخسفت الأرض فى هذه البقعة ؟ وكيف تدفق فيها الماء ، فراح يشقها شقا ، ويخلّف فيها ضروباً من الجزائر والبطائح والوهاد ؟

وأما هواة الرياضة وطلابها فحسبهم من هذه الشلالات روعة المشاهد ، وطيب الأهوية ، وسكينة المكان .

تناهىَ ذلك إلى أسماعنا ونحن فى نيويورك ، فهاج أشواقنا إلى الرحيل ، قصداً إلى الشلالات . . .

وما إن بنينا عزمنا على الرحيل ، حتى أعددنا العدّة لهذه الرحلة ، وخرجنا عند انبلاج الصبح إلى محطة سنترال ترمنال فى قلب المدينة . . .

وأنت إذا شارفت المحطة ، فلمحت بناءها السامق ، حسبت أنك دالف إليه ليحتويك قطار الرحيل . ولكن شدَّ ما يروعك أن تعلم أن هذا البناء على سموقه وفخامته ليس إلا تاجا للمحطة يعتلى رأسها ، وأما المحطة نفسها فهى ساربة فى أطباق الأرض ، ضاربة فى أعماقها ، تهبط إليها فاذا أنت تتحدر فى ناطحة سحاب مقلوبة !

ما أجدر هذه المحطة بأن تسمَّى مدينة وحدها ؛ فهى طبقات بعضها تحت بعض ، بكل طبقة طرقات وأبهاء وردَاه ، وفى كل طبقة متاجر ومطاعم وأندية ، ولكل طبقات مسالك تغدو فيها قطاراتها وتروح . . . وعلى كل ذلك طابع من التناسق والنظام يأخذ بالألباب .

تسضيفك هذه المدينة ، فيروقك أن تجوب فيها ، وترحل بين جوانبها رحلة ربما صرفتْكَ عن رحلتك المقصودة !

وأخيراً لا تجد بدًّا من أن تستَهدِىَ إلى قطارك ، فاذا دُلِلْتَ عليه دخلتَه فى سلامة الله .

ويتحرك القطار ، كأنه يَسْبُر غور الأرض ، فتحس به يشق جوفها شقا ، ويلتمس له من ضيقها مخرجا .

ويبلغ القطار مأربه ، فيخرج على ظهر الأرض ، ميما صوب الشمال ، تستقبله أفواج الضياء . . .

ويمضى القطار لطيَّته ، وهو ما برح فى مناكب نيويورك تلك المدينة الشاسعة التى تبسط ذراعيها ، فتحتضن المرامى الفساح ، وإنه ليخيل إليك أن القطار كلما أمعن ينتهب الطريق ، أمعنت المدينة فى مجاراته ، فكأنما هما يتسابقان ، كَفَرَسَىْ رهان . . .

وبعد لأى يستخلص القطار أذياله من مخالب تلك المدينة التى تمتد ميامنها ومياسرها ، حتى لتكاد لا تدع لغيرها شبراً من المعمور !

ما ظنُّك بعشر ساعات فى القطار بين نيويورك ومدينة الشلالات ؟

إنك لحاسب لها حساباً عسيراً من الملالة والضجر ، ولكنك تدهش إذ تتواصل بك هذه الساعات وأنت رافه غير ملول ولا متضجّر . . . وربما كان مردّ ذلك إلى ما يتوافر فى القطار من جلسة رخية ، وأسباب للراحة كافلة ، وما تطالعك به النافذة من مشاهد للمدائن الصناعية الزاخرة بالحركة والنشاط .

وإن القطار ليسلمك إلى مدينة الشلالات وقد أدبر عنها النهار . فإن تبارح المحطة إلى الطريق العام حتى تشهد مواكب الأضواء فى غير إزعاج ، وتستشعر أول وهلة ذلك الهدوء الشامل ، ويتجلى لك ما طبعت عليه المدينة من رشاقة ورقة ، فلا يلبث ذلك أن يلهيك عما قضيت من ساعاتك العشر الطوال ، وإذا أنت ماض فى المدينة تذرع جوانبها ، مستوعباً ما فيها من مباهج ومتع .

أكان خليقاً بنا ، بعد عشر ساعات فى قطار سيَّار ، أن نأوى على التو إلى حجرتنا فى الفندق نبتغى لأنفسنا الراحة والدعة ؟

لعمرك ما كان لنا وقد أخلدنا إلى السكون على مقعد لا نَرِيمُهُ طوال مرحلة القطار ، إلا أن نطلق أقدامنا من عقالها ، وأن نروض أجسادنا على الحركة والانتقال فى ذلك الجو الرحيب .

بلدة الشلالات أنيقة رشيقة ، سَلِمتْ من شواهق تتسامى فتنطح السحاب ، أو تتهاوى فتدرك الأرض السابعة . . .

بلدة قوامها شارع عظيم تتفرع منه يمنة ويسرة بعضُ المسالك والطرق ، لا يعييك أن تلمّ بكل ما فيها أثناء جولة أو جولتين ، فى ساعة أو بعض ساعة .

هى بلدةُ سُيَّاح ، يتوضح طابع السياحة الأصيل على متاجرها ومطاعمها وأنديتها وسائر مرافق الحياة فيها .

وحيثما ترجع البصر فى أطرافها تطالعك الحدائق الفساح ، والغابات الرحاب ، والجزائر والجسور ؛ كأنها لوح تفنن رسّامة فى تخيير ألوانه الزاهية .

وإنك لتسير فى مسالك هذه المدينة ، فاذا أنت تقف الفينة بعد الفينة تنصت إلى ذلك الدوىّ الذى يصافح سمعك لا تعرف له مأتى ، كأنما هو هتافات تتجاوب بها الآفاق ، من بعيد . فتحسّ لها هزة ورهبة ، ولا تملك إلا أن تمعن فى الاصغاء لتسنجلى ذلك النداء الخفىّ ، ما هو ؟ وما خطبه ؟ وكأن دافعا مجهولا يثير فيك الشغف والتطلع .

وينتهى بك الطواف إلى الفندق ، فتحتويك حجرتك ، وتلقى بنفسك على مرقدك ، فاذا الصوت يلاحقك ، ولكنه يزداد من وضوح وجلاء ؛ فتجد إحساسك كله قد تجمع فى سمعك ، لتتلقى به تلك الترنيمة التى يعمر بها الفضاء ، كأنما هى صوت الطبيعة يشدو ممجّدا عظمة الله !

وتراك قد أسبلت جفنيك ، يتغشاك سبات عميق . . .

ويدركك الصباح ، فتغادر الفندق ، طوعاً لذلك الصوت الذى ما برح يناديك ، وتدع لقدميك أن تنطلقا ، فاذا بهما تحملانك إلى تلك الحدائق العامرة ، قائمة على جزر وأشباه جزر ، وقد ترامى تجاهها بساط من الماء ينحسر البصر دون منتهاه . وإنه لماء عجيب الأطوار ! تارة هو رفيق الجِرْية ، وتارة هو أهوج عربيد ، يراقص بعضه بعضا ، كأنما هو يتواثب على درج . . .

وتخترق الحدائق والغابات تملأ عيليك من مفاتن الطبيعة المتبرجة . . . تلك الطبيعة التى تتخذ لها هناك فى فصل الخريف منظراً بِدْعاً ، ورونقاً عجباً ؛ إذ تكتسى بذلك الرداء البهيج المختلفة ألوانه . . .

وأكبر ما يروعك مما ترى ذلك البحر المديد من أوراق الشجر ، يغطّى أديم الأرض كله . . . بحر مخمل لا تخشى فيه غرقا ، قدماك تخوضانه فتسمع لأمواجه خشخشة كأنما هى حديث ومناجاة .

ولا تفتأ تسير وأنت تخوض هذه الأمواج من الورق فى فرحة الطفل اللعوب ، وتشعر فى مسيرك بالشجر ينفض عليك نثار أوراقه ، فكأنما هو

رذاذ يتساقط عليك فى كل خطوة تخطوها ، فلا تنى تميطه عنك لتمضى فى الطريق . . .

وحيثما قلبت النظر استقبلتك الطبيعة بزينتها : أشجار ما برحت مخضرّة زاهية ، وأخرى نصلت ألوانها بين صفرة وحمرة ، وأشجار تعرت من أوراقها، فهى تتجمع وتتكمش امام هبات النسيم كأنما تستخفى من أعين الرقباء . . .

شدّ ما تتباين ألوان الطبيعة فى حدائق تلك المدينة ، وكأن النبات وهو يودّع فصل النور والتفح يرغب قبل اسكانته فى فصل البرد أن يسخو بكل ما فى جعبته من فتنة ورونق .

أليس من مفارقات الطبيعة أن تبدو الأشجار عريانة فى فصل البرد ، كاسية فى فصل الربيع ؟

أمعن فكرك مليا ، يسفر لك السر . . . إن هى إلا خطة مرسومة ، وفق نظام طبيعىّ دقيق . . .

الشتاء جهامة وأهوية ، ما أقل ساعات النور فيه ، فالناس فى مُعْتَكَفَاتِهم يصطلون ، لا همّ لهم إلا النجاء من وطأة البرد وقشعريرته، فهيهات منهم التفات إلى زهرة تتنضّر، أو شجرة تورق . ففيم تتزين الأشجار وتتحلّى بالأزاهير ؟ ولم تتبرج الطبيعة وقد أقفرت المسالك من العيون ؟

فأما فصل الربيع ، ففيه تسطع الأضواء ، ويطول عمرها فى فسحة النهار ، وفيه تعتدل الأجواء ، ويطيب الهواء ، فلا يملك الناس إلا أن يخرجوا أفواجا يملأون الرحاب ، ويرسلون الطرف متمليا محاسن الكون ومفاتن الطبيعة ، وإذن فقد آن للشجر أن يتبرج ، ليتصيّد الأبصار ، ويسبى الألباب . . .

ليست الطبيعة إلا غانية ، قصارى همها أن تنصب حبائلها فى أنسب الأوقات اختلاباً للقلوب واجتذاباً للاعجاب !

ها أنت ذا تمضى فى طريقك ، فتحس ان قدميك تسيران بك فى نهج معلوم ، إلى غاية مرسومة . وكلما قطعت شوطاً توضح الهدير واستبان عصْفُه ، فاذا أنت خافق القلب واجفه ، وإذا أنت تحث خطاك مخترقاً تلك الحدائق والمنازه .

وتصحو وئيدا من نشوتك ، فتعرف انك لست فى هذا المكان بأوحد ، هنا وهنالك رواد غير قليلين ، ليسوا وحدانا ولا زرافات ، وإنما هم أزواج من

ذكر وأنثى ، كل اثنين خاليان لنفسيهما تحت عريش ، أو خلف ظُلَّة ، أو مفترشين ذلك البساط الطريف من ورق الشجر . . . وجوههم جميعاً تواطق بالطلاقة والبشر ، فهم يستمرئون أزهى ساعات العيش ، وأحلى أُوَيْقات الحياة . . .

إنهم فى مستهلّ أيام العرس . .

ومن ثمَّ لُقِّبَتْ تلك المدينة بمدينة شهر العسل ، يخِفّ إليها الأزواج الجدد أفواجاً يغنمون فيها متاعاً وبهجة . وهل يجدون لأعراسهم مثابة أروع من تلك المثابة التى خلعت عليها الطبيعة أنفس هباتها ، وخصتها بأجمل نفحاتها ، وكستها صبغة من السكينة والهدوء يعزّ وجودها فى ذلك الوطن الأمريكىّ الصاخب العجّاج ؟

وأنت إذا تباطأت خطاك ، لم يلبث الصوت الهدّار أن يستحثك على المضىّ غير وانٍ حتى تبلغ المكان المقصود .

وهناك يتبين لك أنك على ربوة ترتمى دونها المهاوى البعيدة ، وعلى يمينك وشمالك تنصبّ اللجج فى تلك المهاوى غاضبة فوّارة ، وإن هذه اللجج لتقذف بنفسها قذفاً ، كَتائِبَ كَتائِبَ يزحم بعضها بعضاً فى منافسة وغلاب .

وإنك لتشهد ذلك الصراع الفريد ، إذ تحرص كل كتيبة من الموج على أن تسبق غيرها فى الظفر بتلك القفزة الرائعة على صدر النهر السحيق .

وما هى إلا أن تحس فى نفسك نزعة إلى مجاراة هذه الكتائب المتنمرة ، طلباً لتلك النشوه العظمى ، نشوة الوثب والانطلاق . .

وإذا أرسلت بصرك ترقب تلك الكتائب ، وهى تتساقط فى حميتها ونشوتها ، بهرك منها ما تلمح من أبخرة ناصعة تتخذ منها الشمس غلائل ترسم عليها قوسها القزحىّ بأصباغه الزاهية ، وألوانه الفاتنة . . .

ولا بد أن يستبد بك الشغف ، فتطمح نفسك إلى رؤية تلك الكتائب المتحاربة فى مستقرها ، حيث يستقبلها النهر ، ويفسح لها فى مجراه طريق الخلاص .

وإذن فعليك أن تتجهز لمغامرة صغيرة مأمونة ، تتدرَّع فيها بما يقيك البلل ، إذ أن مكانك هناك عن كثب من حضن النهر ، تنهمر دونه فلول من تلك الكتائب الهاوية

وحسبك فى هذه المغامرة أن تكتسى رداء سابغاً من المطاط يشملك من

الرأس إلى القدم ، فكأنما أنت قادم على صيد بحرى عظيم الخطر . . .

فان هبط بك المصعد ، واحتواك شاطىء النهر ، فأنت من الموج المتساقط تجاه ستار غليظٍ أو غمامٍ كثيفٍ راعبٍ صوْته ، كأنما هو زئير جحفل لجِب من سباع ضارية فى فلاة موحشة ، أو لكأنه بركان قد ثار وفار ، وراح يقذف بالحمَم ، ويرمى بالجنادل والرَّجم . . .

يا للهول ! أهذا يوم الحشر ؟ وتلك أصوات الخلائق فى عجيج وضجيج ؟ . . .

هذه هى الشلالات الأمريكية ، وذلك هو الشاطىء الأمريكىّ . وعلى مَدِّ البصر يتراءى لك الشاطىء الكَنَدِىّ بشلالاته ، وقد لا تقنع بما شهدت من ذلك الشطر ، فتأبى إلا أن تستكمل متعتك بما هنالك ، فتعبر النهر على جسره العظيم ، جسر قوس قزح ، وبذلك تنتقل من وطن إلى وطن ، وتنفصل عن أمة إلى أمة ، أرض جديدة ، ومدينة تلقب بمدينة الشلالات الكندية ، يظللها علم آخر ، وتقوم عليها حكومة أخرى !

لقد اقتسمت بريطانيا وأمريكا هذه الشلالات ، فكانت بينهما مناصفة ، ولكن الطبيعة لا تعرف ذلك التقسيم السياسى ولا تقيم له وزنا . . .

ليست بلدة الشلالات الكندية إلا صورة من بلدة الشلالات الأمريكية ، أو هى تكملة لها . ما تجده هنا تجد مثله هنالك ، حتى رشاقة الدور ، ونظام المسالك والحدائق . . .

على أن روعة الشلالات الأمريكية لا تتجلى واضحة المفاتن إلا حيث يأخذها بصرك من الشاطىء الكندى . وأروع ما تكون إذا دجا الليل ، وراحت تكتسى من سواطع المصابيح الكَهْرَبِيَّةِ المختلفة الألوان حلة رفافة ساحرة .

هنا تتزاوج صِبْغَة الطبيعة وصَنْعَة الانسان ، فيتألف من ذلك التزاوج منظر يسمو بك من حدود الحقائق الواقعية إلى آفاق الخيال .

وكأنك وأنت ترقب هذه الشلالات تحت الأضواء الباهرة قد امتطيت الجواد الطائر المسحور ، فطوّح بك فى عوالم خفية من خَلْقِ الأساطير ، ولا تلبث أن يخيل إليك أنك تشهد جحيم دانتى وأن هذا الماء الثائر الوهاج الذى تتعدد ألوانه ليس إلا جانباً من جوانب تلك الجحيم تتلهب شُعَلُها ، ويَتَصَعَّد دخانها ، ويدوِّى زفيرها . بيد أنها جحيم طيبة

مأمونة لا تشعرك خوفا ولا رهبا ، ولا يصيبك من نارها شواظ ، وإنما تملأ قلبك فتنة وروعة ، وتثير بين حناياك عبادة الجمال .

إنك لتظل فى وقفتك ، غافلا عن وقتك ، يجول بك جوادك الطائر فى مملكة الخيال الرحيب ، متنقلا من أفق إلى أفق ، يعرض عليك أفتن ما فى الوجود من مناظر وصور .

وما تزال فى غفوتك ، بل فى نشوتك ، حتى يتلطف لك نسيم الليل ، فيعابثك بلمساته ، فتصحو من أحلامك ، راجعاً إلى دنيا الواقع ؛ وتتفقد دثارك لتحكم وضعه على كتفيك ، وتدفع بخطاك إلى مستقرك ، وكأنك آيب من سفر بعيد الشقة ، جزت فيه بآماد من الحقب الخوالى .

ويستضيفك مكانك من الفندق ، فتمضى متصفحاً تلك الصورات التى تقص عليك نبأ الشلالات وتمثل لك مفاتنها ، فيسترعى بصرك منظرها تحت وطأة الشتاء .

هذه الكتائب الصَّخَّابة العربيدة من الموج يكبح جماحها البرد ، فتنقلب كُتَلا صمًّا ساكنة . . .

بينا هى متأهبة لوثبتها الجريئة ، إذا هى قد جمدت بغتة واستحال ماؤها السيال جلاميد من صخر أملس .

إنها ما برحت فى وضعها المائى تُوَاصِل التدفق ، إلا أن كتائبها وهى فى مهطبها قد بطلت حركتها ، وتماسكت متعلقا بعضها ببعض ، كأنما قد فَجَأَها ما يَرُوع ، فوقفت مستسلمة ليس بها حراك .

وإن منها كتائب أدركها القُرّ وهى فى رأس الشلال على وشك الانحدار ، فلبثت معلقة على فم الهاوية ، لا هى بقادرة على أن ترتد ، ولا هى بقادرة على أن تواصل وثوبها إلى القاع . . .

هى من أمرها فى حيرة ودهش ، تتميز غيظا من عجزها وجمودها . وها هم أولاء روّاد الشلالات الذين كانوا بالأمس يرهبون سطوتها ، ويحاذرون الدنوّ منها ، تراهم اليوم يتواثبون على متونها فى غير محاذرة ولا رهب ، يسخرون من جمودها ، ويشمتون بعجزها !

وثمة كتائب أخرى ، باغتها البرد فى منتصف المَهْوَى ، فجمدت وانسدت دونها المسالك . تبدو بقوامها الفارع مصلوبة شُدَّتْ رءوسها

بأمراسٍ إلى الحافة ، وجُذِبَتْ أقدامها إلى قرارة الهاوية ، فهى ماثلة فى أغلالها تنتهبها العيون !

ما من كائن حىٍّ إلا له وقت راحة ودعة . . . فما لهذه الشلالات تَتَأبَّى حكم الطبيعة ، وتضيق بحكمة الوجود ؟

إن الشتاء ليتيح لها فرصة للصمت والهجوع ، تستجم وتستجمع ، متهيئة لصراع جديد .

ليس منظر الشلالات شتاءً بأهون من منظرها فى الصيف . ولكن المرء وَلُوعٌ أبداً بالحركة والصخب ، يؤثرها على الجمود والتوقف ، ومن ثَمَّ كان الصيف هو الموسم الأعظم لبلدة الشلالات .

تتوافد على هذه الشلالات ألوف مؤلفة من الخلائق ، يحدوهم الشوق والتطلع ، وتجتذبهم مغنطيسية عجيبة تكمن فى تلك الأمواج الزواخر ، وكأن هذه المنطقة الفريدة كعبة يتعبد لسحرها البشر من كل جنس ومن كل صقع ، ولم يعوز هذه الكعبة ما يتوافر لمختلف المعابد والمواطن المقدسة من ألوان الزلفى وصنوف القرابين .

فاذا كانت المدنية العصرية قد اكتسحت أمامها عادة الهنود الحمر الذين كانوا يزدلفون إلى الشلالات بعرائس يَجْلُونها لها فى الحَوْل بعد الحَوْل ، فان البشرية ما زالت تقدم من ذات نفسها قربانات لذلك المعبود العظيم .

ثمة عن كثبَ من رأس الشلالات جسر يلقبونه « جسر الانتحار » يتهاوى منه الناس إلى الشلالات ، فيتفانون فيها . وقد سجل الاحصاء جملة من الخلق ، يلقون بأنفسهم إلى الهوى كل عام .

ترى هل يدفعهم إلى ذلك ضيق بالحياة ، ونُوءٌ بالهموم ؟ أو هو دافع كين من سحر الشلالات يحدوهم على أن يبذلوا أنفسهم فى سبيل الموج ، ملتمسين تلك النشوة الشائقة ، نشوة الوثبة العظمى ، والاندماج الأكبر فى تلك الكتائب العارمة التى ينطوى ركبها الجبار على ألغاز وأسرار بعيدة المرمى عصية المنال ؟

مَرَّتْ عِجَالاً أيامنا فى نياجارا ، ورجعنا من هذه الحجة قد أدينا لها شعائرها من زَوْرَة ومطاف ، تاركين لغيرنا ممن ملكتْهم صُوفِيَّتُها أن يقدموا لها القربان ! . . .

محمود نجيب